

نهج الاعتدال في فكر أئمة الدعوة السعودية

د. محمد بن سعود السفياني

أستاذ العقيدة والأديان المساعد بجامعة الطائف

كلية الشريعة والأنظمة - قسم الثقافة الإسلامية



ملخص البحث

قامت الدعوة التجديدية الإصلاحية التي قادها الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - والأئمة من بعده ممن سار على نهجه؛ على الوسطية والاعتدال في منهجها الفكري، الذي اعتمد على الكتاب والسنة، خصوصاً في قضايا التكفير والحكم على المعين التي اتهم أعداء الدعوة الأئمة بالغلو فيها، والخروج بها عن منهج أهل السنة.

وفي هذا البحث المختصر محاولة لاستجلاء معالم الاعتدال في فكر أئمة الدعوة، من خلال ثلاث قضايا رئيسة وهي: أخذهم بالكتاب والسنة، احتياطهم في تكفير المعين، إعداؤهم بالجهل لمن وقع في الكفر من المسلمين.

Research Summary

The reformist call for reform led by the Imam Muhammad ibn Abd al-Wahhab and the Imams who followed him followed his approach; Call Imams hyperbole in, and out of the approach of the Sunnis.

In this brief research an attempt to clarify the moderation milestones in the thought of the Imams of the call, through three main issues: taking them in The Holy Quran and the Sunnis, their reserve in the atonement of the appointed, excusing them for ignorance of those who disbelieve in the infidelity of Muslims.

المقدمة

الحمد لله العلي العظيم ذي الطول لا إله إلا هو العزيز الحكيم؛ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهداه طريقه القويم وصراطه المستقيم، وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون. والصلاة والسلام على النبي الأكرم، الذي بعثه من علم بالقلم؛ علم الإنسان ما لم يعلم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم... أما بعد

فلقد شاء الله وقضى أن يحفظ هذا الدين العظيم حتى يرث الأرض ومن عليها، ومن تمام حفظه تعالى أن سخر له الأئمة المجدين، والعلماء المصلحين، الذين ورثوا الأنبياء؛ فأحيوا من معالم الدين ما اندرس، وأعادوا من تنكب عن الصراط وانتكس، فما أحسن أثرهم على الناس.

وإن من هؤلاء الأئمة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- ومن سار على نهجه من الأئمة من بعده، فقد ساروا على منهج الأنبياء في الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وسلوكوا طريق أهل السنة والجماعة في الأمر بالهدى والنهي عن الضلالة.

وقد كان لهذه الدعوة أعداء ومناوئون حاولوا النيل منها والتشكيك في نهجها، فاجتهد أئمة الدعوة في الرد عليهم وكشف تلبساتهم، وفي حماة الاتهامات والردود؛ تولد ظن بأن أئمة الدعوة ومن سار على منهجهم كان عندهم غلو في جانب تكفير المسلمين وعدم عذرهم بالجهل في مسائل الشرك الأكبر بالله تعالى!

وفي هذا البحث سنحاول استجلاء معالم الاعتدال في فكر أئمة الدعوة في قضايا التكفير خاصة؛ لأنها محل إشكال، وذلك من خلال المنهج التالي:

منهج البحث:

- ١- قمت بدراسة شاملة لجميع أئمة الدعوة النجدية منذ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله حتى يومنا هذا.
- ٢- حاولت أن أقدم تعريفا شاملاً لأئمة الدعوة ينتظمهم جميعاً، ويمنع غيرهم من الانضواء تحت هذا التعريف.
- ٣- قمت باختيار ثلاثة نماذج من هؤلاء الأئمة في كل مرحلة من مراحل الدولة السعودية الثلاث وهم: الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١١٩٣-١٢٨٥هـ)، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين (١١٩٤هـ-١٢٨٢هـ)، والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٢٠٧هـ-١٢٧٦هـ) ومن خلال هؤلاء الأئمة يمكن استجلاء موقف علماء الدعوة النجدية بوضوح وجلاء؛ فجميعهم سار على ذات النهج وسلك نفس الطريق. وقد وقع الاختيار على هؤلاء الأئمة لاعتبارات سيأتي ذكرها في موطئها^(١)

(١) انظر المبحث الأول في التعريف بأئمة الدعوة.

- ٤- اتبعت في البحث المنهج الوصفي في عرض آراء أئمة الدعوة التقريرية، والمنهج التحليلي في بيان مرادهم من ذلك، ولم أرد على الفهم الخاطئ حول وسطيتهم لأمر:
- أن في تقرير مذهبهم من خلال كلامهم؛ رداً على من زعم خلاف ذلك، ولو جاء بنصوص مشتبهة من كلامهم؛ فيرد ذلك المتشابه للمحكم من كلامهم المذكور في هذا البحث.
- أن تضمين الرد على الفهم الخاطئ في هذا البحث يخرج عن مقصوده ومنهجه المقتصر على تقرير وسطية واعتدال أئمة الدعوة رحمهم الله من خلال تقريراتهم.
- أن هناك من تناول الرد على هذا الفهم كما سيأتي بيانه في الدراسات السابقة.

سبب اختيار الموضوع:

أما سبب اختياري لهذا الموضوع؛ فهو لبيان وسطية واعتدال أئمة الدعوة النجدية، وذلك نظراً للفهم الخاطئ حول رأيهم من بعض من انتسب للعلم، وفي التقرير ما يغني عن الرد.

الدراسات السابقة:

لم أرفيما اطلعت عليه من مصادر من تناول موضوع الاعتدال عند أئمة الدعوة ببحث مستقل؛ ولكن هناك كتابان أشارا في بعض فصولهما إلى منهج أئمة الدعوة في مسألة التكفير؛ وهو النهج الذي عليه أهل السنة والجماعة والرد على من زعم أن منهجهم خلاف ذلك وهما:

كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف للدكتور محمد الوهيبي؛ فقد تناول في الفصل الثاني من الباب الثاني موانع التكفير؛ وفيه بين منهج أئمة الدعوة في ذلك والرد على من زعم أن مذهبهم خلاف مذهب أهل السنة والجماعة الوسطي.

كتاب: إشكالية الإعذار بالجهل في البحث العقدي للدكتور سلطان العميري؛ فقد حرر في الفصل الأول منه منهج الإمام محمد بن عبد الوهاب وأئمة الدعوة في هذه المسألة.

وقد اشتمل هذا البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث على النحو التالي:

التمهيد: في الحالة الاجتماعية والسياسية والدينية التي سبقت الدعوة النجدية.

المبحث الأول: التعريف بأئمة الدعوة النجدية -رحمهم الله-.

المبحث الثاني: التعريف بمصطلحات البحث: نهج، اعتدال، فكر.

المبحث الثالث: معالم الاعتدال عند أئمة الدعوة.

الخاتمة: واشتملت على أهم النتائج والتوصيات.

ونسأل الله تعالى التوفيق والتسديد

التمهيد

الحالة الاجتماعية والسياسية والدينية التي سبقت الدعوة النجدية

قبل أن نتعرف على أئمة الدعوة النجدية يحسن الحديث عن الحالة الاجتماعية والسياسية والدينية التي سبقت ظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، والتي ينتسب إليها هؤلاء الأئمة؛ لما لها من أثر في بيان حال الناس آنئذ، وفهم طبيعة الدعوة وما أثر في انبثاقها، أو وجه سيرها.

أولاً: الحالة الاجتماعية

لم تكن قبائل منطقة نجد التي انبثقت منها دعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بدعاً من القبائل العربية على هذه الجزيرة؛ فقد كانت القبيلة في الجزيرة العربية منذ فجر الإسلام وحتى ما قبل ذلك - أي في حدود القرون العشرة الأولى من هجرة النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه - كانت القبيلة هي المهيمنة على حياة الناس والمديرة لشؤونهم وأمور حياتهم، خصوصاً فيما يتعلق بالخلاف الذي ينشأ من حين لآخر بين أفرادها، وما كانت هذه الهيمنة إلا طمعاً في تماسك القبيلة وتآلفها في وجه ما يحيط بها من أخطار، وما يتهددها من كوارث، ولكي تبدو كل قبيلة أمام القبائل الأخرى أكثر انسجاماً، وأمنع شوكة.

ومع تعاقد الحقب الكثيرة بدأ وجه القبيلة يأخذ في التشظي والتفكك؛ بسبب السعي خلف المهيمن المريع في أنحاء نجد، خصوصاً عندما تظن السماء ببركتها، ويشيح المطر بوجهه عن بعض أرجاء صحرائها الضاربة بأطنابها على نجد وما حولها، أو ربما بسبب الابتزاز تلقاء الشام والعراق وحتى الهند؛ طلباً للاتجار والتكسب. وهذان العاملان أديا إلى تفكك القبيلة وتشظيها إضافة للتمازج بين القبائل المتعددة بحكم المجاورة، والتقارب الحاصل بينهم بفعل المصاهرة. كل ذلك أدى لتلاشي القبيلة من حكم الناس والسيطرة عليهم شيئاً فشيئاً لصالح فيما عرف بعد بنظام الأسرة. ولم يبق من علاقة بالقبيلة سوى الهوية والانتماء العام؛ حيث برزت الأسرة بديلاً للقبيلة، وبدأ النظام الأسري المستمد في أغلبه من نظام القبيلة يتشكل ويتبلور. وظهرت الهجر والبلدات التي تسكنها الأسر الكريمة، التي تحدرت من قبائل عريقة متعددة يربطها الجوار وتوثقها المصاهرة. ويمكن

التمثيل على ذلك ببلدات صغيرة؛ مثل حريملاء التي كان يقطنها في العصور المتأخرة لفيّ من قبائل شتى، أو بلدة القصب التي سكنت بها أسرٌ متباينةٌ من أرومات مختلفة؛ ففيها أسر من تميم ومن البقوم ومن عنزة ومن بني خالد ومن بني زيد وبني قحطان ومن الظفير^(١)

إن هذا التعدد الكبير في هذه البلدات الصغيرة ونحوها؛ يعطي تصوراً واضحاً عن حالة التشظي الرهيبة التي حلت بالقبيلة، وكانت إرهاباً مبكراً لنشأة المدن الحديثة بعد الهجر والحوضر التي كانت بمثابة المقدمة الأولية لها.

ومن الملاحظ في هذه التغيرات الاجتماعية التي كانت تطرأ على حياة الناس في الجزيرة العربية، والتي قاربت الاثني عشر قرناً؛ أنها كانت تغيرات بطيئة، وهي في بعض المناطق أسرع منها في أخرى؛ بحكم الاختلاف في الفكر، وتنوع مصادر الدخل، والتفكير في الارتحال من قبيلة لأخرى؛ ولذلك صُعِبَ على الباحثين في التاريخ و علم الاجتماع؛ التحديد الدقيق لسنوات التغير التي شكلت الحالة الاجتماعية للناس في هذه الحقبة من الزمن، إضافة إلى شح المصادر في أيدي الباحثين مما زاد في غموض تلك الحقبة من القرون المتطاولة، وتحديداً في هذه البقعة من الجزيرة العربية، والتي لم تكن محط أنظار الناس وقتئذ؛ مثل ديار الحجاز حاضنة البقاع المقدسة مهوى أفئدة المسلمين من كل أرجاء المعمورة، كما لم تكن مثل ديار الشام والعراق التي احتضنت الحكم الإسلامي زهاء ستة قرون، والتي ارتحل إليها الناس زرافاتٍ ووحداناً.

لقد كان بروز دور الأسرة الذي أصبح طاغياً في المجتمع النجدي في العصور المتأخرة؛ نواة لتكوين المدن المتحضرة والتي أسهمت بشكل مباشر في بروز الجانب السياسي في حياة الناس آنذاك، حتى بات الصراع على السلطة والحكم ربما وقع بين أسرتين من القبيلة ذاتها، ومن باب أولى بين الأسر التي تنتمي لقبائل متباينة.

وهذا يأخذنا للحديث عن الجانب السياسي الذي ساد قبيل دعوة الإمام المجدد؛ فالترايط بينهما وثيق الصلة ويؤثران في بعضهما بشكل مباشر. وقبل ذلك ينبغي أن نأخذ نظرة عامة على واقع العالم الإسلامي عموماً ثم نذكر على وجه الخصوص الديار النجدية التي انبثقت منها دعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

(١) انظر المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية - معجم اليمامة - ج ١/ص ٣١٧ وما بعدها؛ ط. الثانية مطابع الفرزدق - الرياض - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

ثانياً: الحالة السياسية

عندما نتحدث عن الحالة السياسية التي كانت تهيمن على العالم الإسلامي قبيل دعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله؛ فإننا حتماً لا نستطيع تجاوز الدولة العثمانية، التي كانت تدعي لنفسها أنها حاضنة الخلافة الإسلامية، رغم الضعف الذي أوهن أركانها وضعف سلطانها. كما سنلح لدولة أخرى كانت على عدا مع الدولة العثمانية؛ وهي الدولة الصفوية في بلاد فارس، ثم سنذكر الأوضاع السياسية في الديار النجدية في تلك الحقبة.

أما الدولة العثمانية فقد تربعت على عرش الحكم زهاء ستة قرون منذ عام ١٢٩٩م - ١٩٤٢م، ولكنها في أواخر عهدها - زمن الإمام المجدد وما بعده - أخذت في الانحدار؛ إذ بدأت عوامل الضعف تتخر في جسدها المتهالك، وقد كانت تلك العوامل داخلية وخارجية؛ فأما الداخلية فكضعف السلاطين وانشغالهم بأمورهم الخاصة عن إدارة الدولة ومصالح العباد؛ فاستبد بها الوزراء ورؤساء الجيش الانكشاري، وكان لكل منهم هوى وأطماعاً في تولي الزعامة والثوب على عرش السلطانية. وأما العوامل الخارجية فكالامتيازات الأجنبية التي مُنحت للدول الأوروبية على الأراضي العثمانية، وبعض المعاهدات التي أدت للضغط على العثمانيين، وتحكيم شريعة القانون على أراضيها؛ بحجة المعاملة بالمثل للعثمانيين في البلاد الأوروبية، والتي لم تدم لهم طويلاً.^(١)

ومع هذا الضعف والانحسار للدولة العثمانية، فيبدو جلياً إهمالها لمنطقة نجد بالذات، فلم تكن تنظر لها باهتمام وإنما كان أكثر اهتمامها منصباً على ديار الحجاز؛ للبعد الديني للحرمين الشريفين في قلوب المسلمين، وبقاؤها مهيمنة عليه يعني امتداد أثرها للعالم الإسلامي بأسره، الذي ينظر دائماً بإكبار وإجلال لأي دولة يختارها الله لإدارة شؤون الحرمين، ورعاية حجاج بيت الله وعمّاره وزوّار مسجد رسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. هذا فيما يخص البعد الديني في الجزيرة العربية، وهناك أيضاً البعد الاقتصادي المتمثل في النخيل الذي كانت تزدهر به الجزيرة وخصوصاً منطقة الأحساء وما جاورها. وأما منطقة نجد فلم تكن تتمتع بأية ميزة تجعل منها مثار اهتمام لدولة مترامية الأطراف تكاد تعجز عن إدارة ما تحت يديها من بلدان، كما لم تكن ديار نجد مثل تلك البلدان التي تمدّها بالموارد الهامة التي تعود عليها بالنفع؛ فضلاً عن غيرها من البلدان التي لا تقع تحت يدها مباشرة أو ليس لها فيها منفعة كبيرة؛ ولهذا لم يكثر ثوابها كثيراً لدعوة الإمام المجدد في بدايتها، وقللوا من شأنها حتى ظهر أمرها وعلا ذكرها وفي ذلك لله حكمة.

(١) انظر في الامتيازات الأجنبية رسالة دكتوراه للباحث ياسر قارئ بعنوان: دور الامتيازات الأجنبية في سقوط الدولة العثمانية بجامعة أم القرى قسم الرسائل العلمية - وكتاب الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية بين الآثار الإيجابية والسلبية لسهيلة أحمد وفتحية بن فطيمة - رسالة ماجستير من المملكة المغربية منشور على الشبكة العنكبوتية.

وأما الدولة الصفوية فهي دولة شيعة أسسها إسماعيل بن صفى الدين مطلع القرن العشر الهجري في حدود سنة ١٥٠٠م، والأسرة الصفوية متحدرة من أصل أذربيجاني، وجاء الاسم من الجد صفى الدين إسحاق الأردبيلي، وهو سني على المذهب الشافعي مع شيء من التصوف، ولكن أحد أحفاده واسمه جنيد اعتنق المذهب الشيعي الاثني عشري، ورفض إمرة الأمراء السنة، ودعا للمذهب الشيعي فالتف حوله جمع من الناس، حتى جاء حفيده إسماعيل وأقام الدولة الشيعية الصفوية في إيران.

بقيت الدولة الصفوية في سجل مع العثمانيين، ومع جيرانهم الأوزبكين، حتى سقطت عام ١١٢٥هـ-١٧٢٩م، وتوالى عليها أمراء من الأفغان وغيرهم، حتى العصر الحديث حيث أعادت الثورة الإيرانية المذهب الشيعي جذعاً على يد الخميني.

ولم تجرؤ يد الصفويين أن تمتد نحو الجزيرة العربية؛ إلا عندما خسروا معاركهم أمام العثمانيين؛ خصوصاً معركة تشالديران - صحراء تشالديران في أذربيجان - التي انتصر فيها السلطان العثماني سليم على الشاه إسماعيل الأول، عندها اتجه الصفويون نحو أوربا؛ نكاية في العثمانيين، فوعدهم البرتغاليون على وجه الخصوص بأن يعاونوهم في غزو الجزيرة العربية، حتى الوصول إلى مكة إن هم أرادوا ذلك، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل الواقع أن النزاع حصل بين البرتغاليين والصفويين للسيطرة على البحرين والخليج وما جاورهما.^(١)

هذه إلماحة مقتضبة عن الحالة السياسية عموماً في العالم الإسلامي قبيل دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-؛ فقد كانت تتشاطرها قوتان عثمانية وصفوية، وهما وإن لم تكونا متكافئتين عدداً وعدة ورقعة جغرافية؛ فإنه لا بد من الإشارة لهما باعتبارهما محور الصراع السني الشيعي في ذلك الوقت.

أما ما يخص الحالة السياسية في ديار نجد على الخصوص؛ فإنه إذا اعتبرنا الصراع بين الأسر النجدية في ذلك الوقت صراعاً سياسياً، فيمكن الإشارة إلى الكثير من الحوادث التي وقعت بين الأسر من أجل الاستيلاء على بقعة من الأرض ذات قرار ومعين، أو اتخاذ الأسوار على البلدات والهجر وإقفالها في وجه المتربصين بها الطامعين في خيراتها، أو التحصن في حصون منيعة عند احتدام الحرب واحتماء الوطيس.

ومن ذلك أن بني وائل -الأسرة العريقة المتحدرة من قبيلة عنزة- قد شط بهم الترحال إلى أن استقروا ببلدة أشيقر، بعد أن سمح لهم سكانها الأصليون -وهم «الوهبة» المتحدرون من قبيلة بني

(١) انظر: تاريخ الدولة الصفوية في إيران للدكتور محمد سهيل طقوش صفحة ٧٥ وما بعدها، طبعة دار النفائس ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م ط الأولى بيروت - لبنان.

تميم- بالإقامة معهم، على أن يتقاسموا هم وإياهم المرعى والحمى المحيط بالبلدة، كما يتقاسمون الزراعة وسقيا النخيل في حرم البلدة؛ فكان بنو وائل يرعون يوماً ويخلفهم الوهبة في سقيا الزروع والعناية بالنخيل، وفي اليوم الذي يليه يتم تبادل الأدوار فيما بينهم، فيخرج الوهبة للرعي، ويخلفهم بنو وائل على الزرع والسقي. تمددت أسرة بني وائل وكثرت أعدادهم وقويت شوكتهم، وصار لهم شهرة كبيرة في أرجاء نجد؛ فأحس الوهبة أن هذا التوسع يشكل خطراً عليهم وتهديداً لكيانهم فقرروا إجلالهم عن البلدة دون قتال وبطريقة تحفظ عليهم أموالهم ونساءهم، ولا تدمر بلدتهم الناشئة. وعندما كان اليوم الذي يخرج فيه بنو وائل من البلدة للرعي، أغلق الوهبة الأبواب دونهم عند عودتهم في العشي بعد أن أخرجوا لهم نساءهم وأطفالهم وأموالهم، وقالوا لهم بصريح العبارة: «هذه أموالكم ونساؤكم وأولادكم قد أخرجناها لكم، وليس لنا في شيء من ذلك طمع؛ وإنما نخاف من شرور تقع بيننا وبينكم، فارتحلوا عن بلدنا ما دام نحن وأنتم أصحاب...إننا نخاف منكم أن تملكوا بلدنا وتغلبونا عليها» اختار بنو وائل الرحيل وعدم الاصطدام مع الوهبة، ويبدو أنهم حفظوا لهم اليد الأولى التي أوتهم وقاسمتهم خيرات الأرض وبركتها فقرروا النزوح بهدوء نحو منطقة الوشم.^(١)

هذه الواقعة التي حصلت بين هاتين الأسرتين؛ هي واحدة من عشرات وربما مئات الحوادث التي تقع بين القبائل العربية في منطقة نجد في ذلك الوقت، كان بعضها ينتهي بمأس لا حصر لها من قتل وتشريد وتخريب للبلدات والحوضر. ولم يكن النزاع على السلطة مقصوراً على النزاع بين أسرتين مختلفتين؛ بل ربما وقع بين الأسرة الواحدة صراع على أمانة أو حكم ينتهي بالقتل أو الجلاء في أحسن الأحوال.

من هنا يمكن القول - كما ذكرنا ذلك سابقاً في الحالة الاجتماعية - أن هذا الشكل من الصراع الذي يمكن أن نسميه صراعاً سياسياً- وإن لم تكن هذه اللفظة متداولة في ذلك الوقت - هو الذي أسس لتقبل شكل المدنية الحديثة عبر الأجيال المتعاقبة، ومهد لظهور المدن الحصينة، والأمارات المتعددة، وتقبل الانضواء تحت راية واحدة مادامت هذه الراية لا تحابي أسرة على حساب أخرى، فجاءت دعوة الإمام المجدد المؤزر بمناصرة الإمام محمد بن سعود-رحمه الله-وقد هيا الله لها القبول في نفوس الناس وفي واقع الحياة، فكانت الدولة السعودية الأولى التي تقياً الناس ظلالها رداً من الزمن.

(١) انظر: الوهابية بين الشرك و تصدع القبيلة تأليف: خالد الدخيل ص٤٥٢؛ ط الأولى ٢٠١٣ الشركة العربية للأبحاث و النشر، بيروت. لبنان.

ثالثاً: الحالة الدينية

كان القرن الثاني عشر الهجري من أكثر القرون التي انتشر فيها التيار الصوفي وتغول على اختلاف درجاته في الغلو، وذلك بسبب التركة التي خلفها العثمانيون في العالم الإسلامي التي كانت حنفية المذهب صوفية الاعتقاد، فتأثر بها العالم الإسلامي وتأثرت بها الجزيرة العربية، ومن ذلك العناية بالأضرحة والقبور التي كانت تزار طلباً للبركة أو استشفاءً واستشفاءً بها.

وعندما يكتب باحث غربي عن الحالة الدينية في الجزيرة العربية، ويصفها بالحال المتردية التي لا ترضى صاحب الرسالة الذي جاء بالتوحيد ونبذ الشرك؛ فهذا دليل على وضوح هذه الظاهرة ومصادقيتها أمام أولئك الذين يشككون في مؤرخي الدعوة من أمثال ابن غنام الذي ابتداء كتابه: «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام» بفصل مطول عن تقشي الشرك والضلال والطفیان، في نجد والأحساء وما حولهما من بلدان. فيرى هؤلاء المشككون أن ابن غنام وغيره من مؤرخي الدعوة؛ يبالغون في وصف الحالة الدينية في ذلك الوقت تبريراً لموقف الدعوة من مخالفيها!

ومن ذلك ما ذكر المؤرخ الأمريكي لوثرروب ستودارد في كتابه حاضر العالم الإسلامي من أن الجهل تقشى، وهجرت المساجد، وعمرت القبور، وانتشر التصوف والحج للأولياء عوضاً عن البيت الحرام!^(١)

وحتى المؤرخ الروسي المعاصر فاسيلييف صاحب كتاب: «تاريخ العربية السعودية» كان يرى أن الجزيرة في القرن الثامن عشر الميلادي/ الثاني عشر الهجري؛ كانت تعيش في أزمة روحية، تمثلت في البعد عن الدين وانتشار الخرافات، وطقوس الشراكيات خصوصاً في البادية التي كانت تزرع تحت نير الجهل المطبق.^(٢)

ومن ذلك أيضاً ما ذكره المؤرخ البريطاني: جونز بريدجز، الذي عاصر انبثاق الدعوة، وكتب عنها كتاباً رائعاً منصفاً، حيث عايش الأحداث بنفسه فقد قضى شطراً من عمره في الجزيرة العربية والبصرة وبغداد وانتهى به المقام في إسطنبول، ولم يتأثر بالدعاية المضللة عن الدعوة؛ لأنه رأى أنها جاءت من قبل أعدائها في الدولة العثمانية التي شارفت على الانحلال والسقوط، فقد

(١) حاضر العالم الإسلامي للمؤرخ الأمريكي لوثرروب ستودارد ترجمة: عجاج نوهيض. طباعة دار الفكر: ج١/ص ٢٥٩.

(٢) انظر ص: ٨٢ وما بعدها من كتاب: «تاريخ العربية السعودية» للمؤرخ الروسي: ألكسي ميخالوفيتش فاسيلييف، ترجمة: خيرى الضامن وجمال المشطة - دار التقدم - موسكو ١٩٨٦م.

ذكر في كتابه: «موجز لتاريخ الوهابي» أن أئمة الدعوة وأمراءها كانوا يحاربون المظاهر الشركية؛ كالهتاف عند الأضرحة بما في ذلك قبره الشريف ﷺ في المدينة، وغيره من القبور التي كانت تزار وهتف لها باسم غير الله.^(١)

وهذا لا يعني - مطلقاً - أن الشرك كان مهيمناً هيمنة كاملة على الجزيرة العربية بما فيها نجد؛ بل كان هناك علماء وفقهاء ومدارس مذهبية كالحنبلية في نجد التي أخرجت الإمام محمد بن عبد الوهاب نفسه وغيره من العلماء والفقهاء، ولكن كان الشرك في مكان دون مكان، وفي قوم دون آخرين. ومما يدل على ذلك أيضاً أن بعض مؤلفي الكتب أمثال الشيخ أحمد المنقور الذي هو من المدرسة التي ينتمي إليها الإمام محمد بن عبد الوهاب، قد ألف كتاباً ضخماً بعنوان: «الفواكه العديدة في المسائل المفيدة» سجل فيه آراء العلماء المعاصرين في كثير من المسائل؛ لا سيما شيخه قاضي الرياض عبد الله بن زهران، ولم يكن موضوع الشرك حاضراً في سؤالاته تلك لعلماء زمانه. وهذا يدل أيضاً على الحركة العلمية التي كانت موجودة في ذلك الوقت؛ من دروس علمية، ومن فقهاء ومشايخ يعلمون الناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم، ويقضون بينهم بما أراهم الله من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ مقتفين أثر السلف الصالح رحمهم الله وخصوصاً الإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. وهذه المدرسة التي كانت حاضرة بقوة في منطقة نجد؛ هي التي شكلت فكر الإمام محمد بن عبد الوهاب وفكر أئمة الدعوة من بعده حتى يومنا هذا.

وهكذا كانت الحالة الدينية في ذلك الوقت ينتشر فيها الجهل والشرك والخرافة وتعظيم غير الله تعالى وزيارة القبور والأضرحة وتعظيمها وطلب البركة ممن لا حول لهم ولا قوة ولا يغنون عن أنفسهم شيئاً فضلاً عن سواهم، مع وجود جانب من العلم الشرعي والعلماء والفقهاء الذين نفع الله بهم العباد والبلاد.

هذا باختصار ما يمكن الإشارة إليه عن الارهاصات الاجتماعية والسياسية والدينية التي غشت الجزيرة العربية، ومنطقة نجد تحديداً والتي سبقت انبثاق الدعوة النجدية دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب تلك الدعوة التي انبثقت عنها مدرسة فكرية كبيرة عرف علماءؤها بأئمة الدعوة. فمن هم هؤلاء الأئمة؟ وما هي أبرز مرتكزاتهم الفكرية المعتدلة التي تبين وسطيتهم وبعدهم عن الغلو والتكفير للذين وصمهم بهما أعداؤهم؟

(١) موجز لتاريخ الوهابي تأليف: هارفرد جونز بريدجز. ترجمة و دراسة و تعليق د.عويضة الجهني ، دار الملك عبدالعزيز ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م ص ١٠٩.

المبحث الأول

التعريف بأئمة الدعوة

عند التعريف بأئمة الدعوة النجدية أو دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب فسيكون أمامنا طريقتان للتعريف بهم؛ الأول: إما أن نعددهم بدءاً من أبناء الإمام وتلاميذه فمن بعده حتى يومنا هذا من العلماء الذين كتبوا وألفوا على منهج الإمام مناصرين لدعوته ومؤيدين لها، وهذا في نظري أفضل ما يمكن عمله لأنه يستوعب الأئمة جميعاً ويمكن من معرفتهم على وجه الدقة، ولكن عملاً مثل هذا يعد عملاً موسوعياً ضخماً يخرج بالبحث عن مقصوده؛ في حين أن هناك من سلك مثل هذا الطريق أمثال الشيخ ابن قاسم في الدرر السنية حيث رتب أجوبتهم بناء على وفياتهم بدءاً بالإمام محمد بن عبد الوهاب - خصوصاً في الأجزاء الأولى وبعض الأجزاء الأخيرة -^(١)، وأمثال الشيخ عبد الله البسام في كتابه الحفيل: «علماء نجد في ثمانية قرون».^(٢)

الطريق الثانية: أن نحاول التعريف بهم عن طريق وصفهم بوصف جامع مانع، يندرج تحت هذا الوصف كل واحد من هؤلاء الأئمة على امتداد هذه الأعصر، ويمنع غيرهم من الدخول معهم تحت هذا الوصف بحيث يصبح علامة فارقة لهم عن غيرهم.

وعليه فيمكن أن يقال: أئمة الدعوة النجدية هم كل عالم من علماء الدولة السعودية في مراحلها الثلاث؛ منذ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وحتى يومنا هذا؛ تبنّى وألف على منهج الإمام محمد بن عبد الوهاب - خصوصاً في أبواب الاعتقاد - وناصر دعوته وأيدها.

ففي هذا التعريف بيان للزمان والمكان والمنهج؛ فأما الزمان فهو منذ ظهور الإمام محمد ابن عبد الوهاب أي في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي؛ فيخرج به كل من كان من العلماء قبل هذا الإمام، ويدخل فيه كل من جاء بعده. وليس الأمر مقتصرًا على من عاصر الإمام فقط، أو كان من علماء الدولة السعودية الأولى (١١٥٧هـ - ١٢٣٣هـ) فقط؛ فإنك لا تستطيع أن تخرج منهم أمثال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ (١١٩٣-١٢٨٥هـ) - وهو مخضرم بين الأولى والثانية، حيث عاصر ثلاثة من أمراء الدولة السعودية الأولى وثلاثة من أمراء الدولة السعودية الثانية^(٣)، أو الشيخ عبد الله بن عبدالرحمن أبا بطين (١١٩٤هـ - ١٢٨٢هـ) والشيخ حمد ابن علي بن

(١) انظر منهج ابن قاسم في ذلك: الدرر السنية في الأجوبة النجدية له؛ ج ١/ص ٢٥

(٢) طبع الكتاب أول مرة عام ١٣٩٨هـ والثانية طبعته دار العاصمة بالرياض عام ١٤١٩هـ بزيادات وتعديلات كثيرة.

(٣) انظر علماء نجد في ثمانية قرون للبسام ج ١/ص ١٩١ وستأتي ترجمته ص ١٥.

عتيق (١٢٢٧هـ - ١٣٠١هـ) وهما من أئمة الدعوة في الدولة السعودية الثانية (١٢٤٠هـ - ١٣٠٩هـ)، ولا أن تخرج أمثال الشيخ محمد بن إبراهيم (١٣١١هـ - ١٣٨٩هـ) والشيخ عبد الرحمن ابن ناصر السعدي (١٣٠٧هـ - ١٣٧٦هـ) والشيخ عبد العزيز بن باز (١٣٣٠هـ - ١٤٢٠هـ) والشيخ ابن عثيمين (١٣٤٧هـ - ١٤٢١هـ) وهم من أئمة الدعوة في الدولة السعودية الثالثة (١٣١٩هـ - حتى الآن أمام الله عزها وشموخها)^(١)؛ بل يعد هؤلاء جميعاً من أئمة الدعوة ﷺ تغشاهم أجمعين. وكذلك كل من جاء من بعدهم.

وأما المكان فالدولة السعودية بمراحلها الثلاث وقلت الدولة السعودية ولم أقل منطقة نجد مثلاً؛ لأن الرقعة الجغرافية كانت مختلفة في المراحل التي مرت بها الدولة السعودية في أطوارها الثلاث؛ فكل رقعة امتدت عليها الدولة السعودية؛ فهي منضوية تحت تعريفنا هذا، فيخرج بذلك العلماء في الأمصار المختلفة في العالم الإسلامي من هذا التعريف ولو عاصروا زمن الدعوة أو حتى تأثروا بها ولكنهم كانوا من غير أهلها الذين هم أهلها.

وأما المنهج فلا شك أن منهج الإمام محمد بن عبد الوهاب هو المنهج السلفي الذي كان عليه السلف الصالح؛ كالإمام أحمد والشافعي والسيديانين، ومن جدد مذهبهم وسار على طريقهم كابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمة الله عليهم أجمعين. فمن تبنى هذا المنهج وألف فيه -ولو مؤلفاً واحداً - فهو من أئمة الدعوة، فيخرج بذلك كل من كان معدوداً في العلماء ولكنه كان على غير طريقة السلف من صوفية أو أشعرية أو غيرها. وذكرنا التأليف خصوصاً؛ لأنه الطريق الأفضل الذي يمكن الحكم به على منهج الأئمة ﷺ وهو الباقي الذي يمكن للناس الاطلاع عليه والإفادة منه. وخصصنا التأليف في أبواب الاعتقاد لأنها هي التي تبين المنهج بغاية الوضوح بخلاف كتب الفقه مثلاً.

وأما المناصرة والتأييد للدعوة فالمقصود منها إخراج كل من ألف على منهج الإمام محمد ابن عبد الوهاب - أي المنهج السلفي من حيث الاعتقاد - ولكنه غير مؤيد له في دعوته في الأسلوب والنهج الذي سارت عليه، بل ربما انتقدها أو خطأها. فإن أمثال هؤلاء لا يعدون من علماء الدعوة ولو كانوا مجتهدين مخطئين وعند الله معذورين فليس هذا الشأن؛ إنما الشأن بيان من يعد من علماء الدعوة ومن ليس كذلك.

(١) قد يختلف تحديد مراحل الدولة السعودية في بداياتها الثلاث بين المؤرخين ومن تناول ذلك، وقد ذكر مناهج مؤرخي الدولة السعودية في مختلف مراحلها؛ الدكتور عبد الله الصالح العثيمين في مقدمة كتابه: تاريخ المملكة العربية السعودية الذي طبع عدة طبعات منها الطبعة الثالثة عشر من مكتبة العبيكان لعام ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م - الرياض.

بهذا التعريف - من وجهة نظري - يمكن أن نعطي تصوراً واضحاً لأئمة الدعوة يمكن الاعتماد عليه في البحث والدراسة لأي موضوع يخص هؤلاء الأئمة الأعلام، فإني لم أجد - بحسب ما اطلعت عليه من مصادر - مَنْ عرّف أئمة الدعوة بتعريف وصفي جامع مانع، يشملهم جميعاً ويمنع غيرهم من الدخول معهم فيه^(١)، وهي مسألة اجتهادية المقصود منها بيان وجهة البحث التي يسير عليها، وإيضاح موضع الدراسة تحديداً؛ مراعاةً للدقة والموضوعية التي يتطلبها البحث الأكاديمي.

وفي هذا البحث المختصر لا نستطيع أن نأتي على كل أئمة الدعوة؛ لنبين معالم الاعتدال في فكرهم، وإنما سنتبع في هذه الدراسة ما يُعرّف بالنموذج التفسيري؛ وهو أن نقف على نماذج من أئمة الدعوة في مراحل الدولة السعودية الثلاث، ونقدم من خلالها أنموذجاً يفسر عموم منهج الأئمة في هذه المسألة العظيمة.

وحتى لا يكون الاختيار اعتباطياً غير مبني على أساس؛ كان لزاماً عليّ أن أبين ضوابط اختيار هؤلاء الأئمة، فوضعت هذه الأمور التالية في الاعتبار:

١ - أن اختار عالماً من علماء الدولة السعودية في مختلف مراحلها الثلاث.

٢ - أن يكون لهذا العالم مؤلفات في بيان القضايا العقدية خاصة.

(١) قدم الباحث الدكتور محمد طاهري بحثاً مميزاً عنوانه: تقريرات أئمة الدعوة في مخالفة منهج الخوارج وإبطاله، وعرف بأئمة الدعوة من خلال الطريق الثاني الذي ذكرناه وأدخل في أئمة الدعوة كل من تتلمذ على الإمام محمد بن عبد الوهاب أو تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه فقط؛ وأن يكون سائراً على نهج الإمام قال: «ويخرج بهذا صنفان من الناس من تتلمذ على أئمة الدعوة ولكنه لم يقبل الدعوة ولم يرفع بها رأساً. ومن قبل الدعوة ودعا إليها ولكنه لم يتلمذ على أيدي أئمة الدعوة» ص ٤٧-٤٨؛ وهذا تعريف جيد ولكن يرد عليه ما يلي:

(٢) أنه يدخل في أئمة الدعوة كل من تتلمذ على الشيخ أو طلابه أو طلاب طلابه ولو لم يكن إماماً فمعلوم أنه تتلمذ على أيديهم خلق كثير ولكن لم يكونوا مؤثرين في الدعوة تأثيراً باقياً وربما كان كثير منهم غير معروف أصلاً، وأقل مرتبة في الإمامة - في نظري - أن يكون له مؤلف على الأقل يمكن التعرف من خلاله على المنهج الذي سار عليه كما ذكرنا أعلاه.

(٣) أنه يقصر الإمامة على الجيل الثالث تقريباً بعد الإمام محمد بن عبد الوهاب وهذا الحصر لا داعي له؛ فحتى من جاء ومن سيجي من بعدهم يعد منهم بالضوابط التي ذكرنا ولا وجه لإخراجهم.

(٤) أن اشتراط التلمذة يخرج كل من لم يتلمذ عليهم ولو كان من العلماء الأفاضل الذين ناصرُوا الدعوة وأنفوا الكتب على منهج الإمام وهم من أبناء الدولة السعودية في أي من مراحلها الثلاث.

(٥) أن اشتراط التلمذة يدخل كل من تتلمذ على أيديهم ولو لم يكن من علماء هذا البلد مثل كثير ممن تتلمذ عليهم من أهل مصر والشام وغيرهم. وبهذا نرى أن التعريف بهم بهذين الشرطين الذين ذكرهما المؤلف فقط لا يعد جامعاً ولا مانعاً والله أعلم. انظر: تقريرات أئمة الدعوة في مخالفة مذهب الخوارج وإبطاله للدكتور محمد هشام طاهري ط: الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م غراس للنشر والتوزيع - الكويت.

٣- حاولت - ما استطعت - عدم التعرض لأئمة الدعوة الذين كان كل إنتاجهم أو جلّه الردّ على المخالفين، وهو وإن كان مجالاً رحباً لاستخلاص القضايا العقديّة؛ لكنني فضلت الاقتصار على الأئمة الذين كان انتاجهم في أغلبه يتمثل في بيان وتقرير وتقعيد مسائل الاعتقاد؛ لأنه سيكون أعمق فكراً، وأبعد عن ضغط الرد الذي قد يؤدي إلى لزوم ما لا يلزم، أو توهم ما لا يتوهم.

٤- فضلت ألا يكون الأئمة المختارون كلهم من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ درءاً لشبهة انتصارهم للنسب، أو لشبهة تسييس المعتقد.

٥- كان اختيار الشيخ أبا بطين-بالذات-لأمرين؛ الأول أنه أشهر من عُرف بلقب مفتي الديار النجدية، وإليه انتهت الإمامة في الفتيا في زمانه. الثاني: أنه قد اشتهر عنه القول بعدم العذر بالجهل في مسائل الشرك الأكبر، ونَسَبَ هذا القول لابن تيمية وابن القيم، ونريد أن نتبين موقفه من ذلك وسيأتي في موضعه إن شاء الله.

٦- وأخيراً وقع الاختيار على العلامة بن سعدي؛ لأنه في تقديري يستحق لقب المجدد الثالث لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله؛ وذلك لاعتبارات سأذكرها لاحقاً عند الحديث عنه.

وعليه فتم اختيار ثلاثة من الأئمة وفق هذه الاعتبارات يمكن أن يتبين من خلالهم نهج أئمة الدعوة في التوسط والاعتدال في مسائل الاعتقاد وهم:

أولاً: الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١١٩٣-١٢٨٥هـ)

وهو أشهر من نار على علم، ويعد المجدد الثاني بعد جدّه الإمام محمد بن عبد الوهاب، وهو شارح كتاب التوحيد الذي سماه بـ «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» وهذا الشرح وإن كان تهنئياً وتكميلاً لكتاب ابن عمه الشيخ سليمان بن عبد الله^(١) المسمى: «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد»^(٢)؛ إلا أنه من أجود الشروح وأشهرها على الإطلاق، وأول شرح شامل لأبواب كتاب التوحيد جميعها^(٣)؛ فالشيخ عبد الرحمن تتلمذ على جده، وقرأ عليه كتاب التوحيد وغيره من الكتب؛ ويعد

(١) هو المحدث الفقيه سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ولد سنة ١٢٠٠هـ ولم يتلمذ على جده لصغر سنه، ولكن تتلمذ على والده وعلى تلاميذ الشيخ الإمام. وله الإمام سعود بن عبد العزيز قضاء مكة رغم حداثة سنه. قتل شاباً على أيدي قوات إبراهيم باشا بعد أن عزفت أمامه المعازف إرغاماً له، ثم خرج به العسكر إلى المقبرة فصوبوا جميعهم البنادق تجاهه وأطلقوا عليه في لحظة واحدة ليتناثر لحمه رحمه الله وتقبله شهيداً وقد كان هذا الحادث الأليم عام ١٢٢٣هـ وكان عمره ثلاث وثلاثون سنة. انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون؛ للباسم ج ٢ / ص ٢٤١.

(٢) ذكر ذلك في مقدمة كتابه فتح المجيد مراجعة وتصحيح وتعليق الشيخ عبد العزيز بن باز ص ٩.

(٣) انظر مقدمة الشيخ بكر أبو زيد لكتاب فتح الله الحميد المجيد في شرح كتاب التوحيد للعلامة حامد بن محسن. ط: الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م دار المؤيد للنشر والتوزيع - الرياض.

الشيخ عبد الرحمن من أئمة الدعوة في الدولة السعودية الأولى والثانية، ولكنه عاش أغلب عمره في الأولى ثم نفي بعد سقوط عاصمتها (الدرعية) إلى مصر وفيها تتلمذ على علماء ومشايخ أجازوه في كثير من العلوم؛ لما رأوا من حرصه على العلم ورسوخه فيه. وعندما قام الإمام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، ونهض بالدولة السعودية الثانية عاد الشيخ عبد الرحمن من مصر، وأزر الإمام تركي وناصره وكان له كمحمد بن عبد الوهاب لمحمد بن سعود؛ فكان صاحب الخطوة والكلمة الذي التّم على يديه شمل العلماء، وتوحدت كلمتهم، وأصبح هو المرجع الذي يرجعون إليه. ومن أهم مؤلفاته إضافة لفتح المجيد؛ قرّة عيون الموحدين، ومختصر العقل والنقل، والمقامات في تاريخ الدعوة، وبيان كلمة التوحيد، والمحجة، والمورد العذب الزلال، ومختصر تفسير سورة الإخلاص، وتفسير سورة الفاتحة وغيرها. أمد الله في عمر الشيخ حتى جاوز التسعين وتوفي في الحادي عشر من ذي القعدة من عام ١٢٨٥هـ رحمه الله رحمة الأبرار.^(١)

وتعد مؤلفات الشيخ وفكره من أهم ما يمكن أن يصور من خلاله نهج أئمة الدعوة؛ فهو يعتبر المجدد الثاني-كما أسلفنا- بعد الإمام محمد بن عبد الوهاب، والساثر على نهجه، والمؤثر فيمن جاء من بعده من أئمة تتلمذوا عليه، وطلبوا العلم بين يديه؛ ولهذا لا يمكن أن نتجاوز مثل هذا الإمام في تصوير نهج أئمة الدعوة في أي مسألة كانت، فكيف إذا كانت هذه المسألة من أهم المسائل وأكدها؛ والتي وقع فيها نزاع كبير بين الناس، وفهمت على غير وجهها حتى من بعض المتأثرين بهذه الدعوة المباركة. وسنحاول جاهدين في هذا البحث جمع كلام هذا الإمام ومن بعده من الأئمة في مسألة الوسطية والاعتدال، ونرى من خلاله نهجهم الذي سلكوه وسبيلهم الذي اتبعوه.

ثانياً: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين (١١٩٤هـ-١٢٨٢هـ)

عاصر الشيخ أبابطين الشيخ عبد الرحمن بن حسن وعاش كنف الدولة السعودية الأولى والثانية، ولكن - في تقديري - كان الشيخ أبابطين يمثل علماء الدولة السعودية الثانية أكثر من الشيخ عبد الرحمن بن حسن، مثلما يمثل الشيخ عبد الرحمن علماء الدولة السعودية الأولى أكثر من تمثيل الشيخ أبابطين لهم؛ وذلك لأن الشيخ عبد الرحمن بن حسن كان منفياً في مصر إبان قيام الدولة الثانية على يد الإمام تركي بن عبد الله، بينما كان الشيخ أبابطين بجوار الإمام يناصره ويحث الناس على مناصرته؛ فقد ساعده على استتباب الأمن والطمأنينة بين الناس بالقضاء؛ فقد تولى القضاء في عدد من المناطق في الوشم وسدير وعنيزة وغيرها، كما فعل ذلك مع ابنه الإمام فيصل

(١) انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون؛ للبسام ج١/ص ١٨٠ وانظر في سرد مؤلفاته مقدمة تحقيق كتابه الحفيل: فتح المجيد بتحقيق د. وليد آل فريان ج١/ص ٢٤ ط: الأولى ١٤١٥هـ دار الصميعي للنشر والتوزيع - الرياض.

ابن تركي بن عبد الله رحمهم الله جميعاً^(١).

ولد الشيخ أبابطين في روضة سدير، بعد مولد الشيخ عبد الرحمن بن حسن بسنة واحدة فقط، وتوفي قبله بثلاث سنين تقريباً. ويرجع نسبه لقبيلة قحطان العريقة. وفي آبائه عدد من العلماء والشيوخ؛ فهو العلامة عبد الله بن الشيخ عبدالرحمن بن عبد العزيز بن الشيخ عبدالرحمن بن عبد الله بن سلطان بن خميس الملقب بـ أبي بطين-تصغير بطن-.

خلف الشيخ أبابطين عدداً من المؤلفات العقدية، فيها بيان لوسطية أهل السنة والجماعة واعتدالهم في بيان العقيدة وقضاياها، سنعرض لبعضها من خلال بيان نهج الوسطية والاعتدال في تلك الآثار العلمية لهذا العالم الجليل^(٢).

ثالثاً: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧هـ-١٣٧٦هـ)

العلامة عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي يعود نسبه لقبيلة بني تميم، عرف بعلامة القصيم، حيث نزع أجداده من جهة حائل إلى القصيم؛ فكان مولده بعنيزة سنة ١٢٠٧هـ، وقد توفي والده ولماً يبلغ الحلم؛ فنشأ يتم الأبوين، طلب العلم في سن مبكرة ونفع الله به العباد والبلاد؛ فكان إليه المنتهى في شؤون الناس وقضاياهم، محتسباً ذلك لوجه الله، وقد عُرض عليه القضاء فرفضه. كان إمام الجامع الكبير بعنيزة، وتتلذذ على أيديه خلق كثير؛ من أعظمهم العلامة محمد ابن صالح العثيمين؛ الذي خلفه في إمامة الجامع والتدريس. ترك العديد من المؤلفات التأصيلية التي تدل على ثاقب فهمه ورسوخه، واعتنى عناية خاصة بكتب الإمامين ابن تيمية ابن القيم. والحديث عن هذا العلامة وعن خلقه وسماحة نفسه ونفعه للناس يطول. مرض في آخر حياته فأرسل له الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله طائرة خاصة، نقلته للعلاج في لبنان، ولم يلبث بعد هذه الرحلة العلاجية طويلاً حتى توفاه الله في الثالث والعشرين من جمادى الثانية عام ١٣٧٦هـ رحمه الله رحمة واسعة.

كانت مؤلفات هذا الإمام تكشف عن مدى فهمه لسماحة الشريعة ووسطيتها، كما كان يأخذ بالمصالح في أعماله الجليلة التي يقوم بها؛ من ذلك أنه أول من استخدم مكبر الصوت في مسجده، رغم استنكار غيره من علماء عصره لذلك. ولئن كان الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ يعد المجدد الثاني للدعوة؛ ففي تقديري أن العلامة بن سعدي هو المجدد الثالث لهذه الدعوة المباركة لعدة اعتبارات:

(١) انظر كتاب: الشيخ عبد الله أبابطين مفتي الديار النجدية حياته وآثاره وجهوده في نشر عقيدة السلف مع تحقيق رسالته الرد على البردة؛ تأليف وتحقيق د. علي العجلان - ط: الأولى؛ دار الصميعي للنشر والتوزيع ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م الرياض.

(٢) انظر في ترجمته المصدر نفسه ص ٩٥ وما بعدها، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون للعلامة البسام ج ٢/ ٥٦٧.

١- أن الشيخ بن سعدي رحمه الله صاحب مدرسة علمية أثرت بشكل كبير في سياق الدعوة، فتخرج منها تلاميذ أفذاذ نفع الله بعلومهم، وكانوا امتداداً لمدرسة شيخهم بن سعدي، وحسبك العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله الذي سار على نهج شيخه تعليماً وتفتيحاً وتأليفاً.

٢- أن مؤلفات الشيخ التي تميزت بأمرين: كثرتها وتنوعها؛ حيث زادت على أربعين مؤلفاً في مختلف المعارف والعلوم، والأمر الآخر الأهم؛ أنها في غالبها مؤلفات تأصيلية؛ تعلم المنهج الذي تتهم به العلوم المختلفة، فكان بمثابة من يرسم الطريق الأمثل لطلاب العلم في فهم الشريعة، والتعامل مع نصوصها وفق قواعد منهجية ورؤى تأصيلية؛ وذلك مثل مؤلفه في التفسير الذي سماه «القواعد الحسان» ومثل «القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة» بين فيها الأصول المشتركة للأحكام، وكذلك الفوارق التي تميز كلاً منها، .. وغير ذلك من المؤلفات على هذا النهج؛ كأصول الفقه والقواعد الفقهية ونحوها.

٣- عناية الشيخ بن سعدي الكبيرة بعلوم الإمامين ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله اللذين كانا المرجع الرئيس لفكر أئمة الدعوة، وعلى رأسهم الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب. ومن عناية العلامة بن سعدي بهذين الإمامين؛ أن أكثر مؤلفاته إنما هي مستقاة من كتب هذين العُلَمَين؛ ككتابه الذي انتهج فيه النهج التأصيلي - كما أشرنا آنفاً - «طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول» وقد انتقاها من أكثر من ستين كتاباً من كتبهما. كما شرح المنظمة الثائية لابن تيمية في القدر، وكذلك نثر نونية ابن القيم في كتابه: «توضيح الشافية الكافية». وكان كثيراً ما يميل لاختياراتها.

إن هذه الأمور التي اتسم بها منهج الشيخ ابن سعدي رحمته الله تؤهله لأن يكون المجدد الثالث لهذه الدعوة المباركة؛ فأثره فيها كبير، وعلمه الذي نثره في مؤلفاته على منهج أئمة الدعوة غزير، وعنايته بمؤلفات ابن تيمية وابن القيم ليس لها نظير.

وسنحاول عرض أبرز معالم الاعتدال في فكر هذا الإمام الجليل من خلال كتبه التي ألفها، ومسائله التي كشفها. ^(١)

(١) انظر في ترجمته ومؤلفاته كتاب: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة لعبد الرزاق البدر ص، ٤٩، ١٧، حيث ذكر في الحاشية أربعة عشر مرجعاً في ترجمته. والكتاب في الأصل رسالة علمية، ط: الثانية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م مكتبة ابن رشد - الرياض.

المبحث الثاني

التعريف بمصطلحات البحث: نهج، اعتدال، فكر

أولاً: نهج: هذه الأحرف الثلاث؛ هي أصل الكلمة التي تفرعت عنها معان عدة، بحسب زيادة مبانيها وتوسع معانيها، وهذا الأصل (الهاء والنون والجيم) يدل على معنيين متباينين؛ فيدل على الطريق كما يدل على الانقطاع!

يقول ابن فارس: «(نَهَجَ) النُّونُ وَالْهَاءُ وَالْجِيمُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ: الْأَوَّلُ النَّهْجُ، الطَّرِيقُ. وَنَهَجَ لِي الْأَمْرُ: أَوْضَحَهُ. وَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْمَنَهِاجِ. وَالْمَنْهَجُ: الطَّرِيقُ أَيْضًا، وَالْجَمْعُ الْمَنَاهِجُ. وَالْآخَرُ الْإِنْقِطَاعُ. وَأَتَانَا فَلَانٌ يَنْهَجُ، إِذَا أَتَى مَبْهُورًا مُنْقَطِعَ النَّفْسِ. وَضَرَبْتُ فَلَانًا حَتَّى أَنْهَجَ، أَيَّ سَقَطَ»^(١).

والمعنى المراد في هذا البحث؛ ما كان يدور حول الوضوح والبيان والطريق؛ يقول صاحب اللسان في هذا المعنى:

«نهج: طريقٌ نهَجٌ: بينٌ واضحٌ، وهو النَّهْجُ؛ قَالَ أَبُو كَبِيرٍ:

فَأَجَزْتُهُ بِأَفْلٍ تَحْسَبُ أَثَرُهُ ××× نَهَجًا، أَبَانَ بِذِي فَرِيغٍ مَخْرَفٍ

والجمعُ نَهَجَاتٌ ونُهَجٌ ونُهوجٌ؛ قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ:

بِهِ رُجُمَاتٌ بَيْنَهُنَّ مَخَارِمُ ××× نُهوجٌ، كَلَبَاتٍ الْهَجَائِنِ، فِيجُ

وَطُرُقٌ نَهَجَةٌ، وَسَبِيلٌ مَنَهَجٌ: كَنَهَجٍ. وَمَنَهَجُ الطَّرِيقِ: وَضْعُهُ. وَالْمَنَهِاجُ: كَالْمَنَهَجِ. وَفِي التَّنْزِيلِ: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمَنَهِاجًا» وَأَنَهَجَ الطَّرِيقُ: وَضَحَ وَاسْتَبَانَ وَصَارَ نَهَجًا وَاضِحًا بَيِّنًا؛ قَالَ يَزِيدُ بْنُ الْخَذَّاقِ الْعَبْدِيُّ:

وَلَقَدْ أَضَاءَ لَكَ الطَّرِيقُ، وَأَنَهَجْتَ ××× سُبُلَ الْمَكَارِمِ، وَالْهُدَى تُعْدِي

أَيَّ تَعِينُ وَتَقْوِي. وَالْمَنَهِاجُ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ. وَاسْتَهَجَ الطَّرِيقُ: صَارَ نَهَجًا. وَفِي حَدِيثِ الْعَبَّاسِ: «لَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى تَرَكَكُمْ عَلَى طَرِيقٍ نَاهِجَةٍ» أَيَّ وَاضِحَةٍ بَيِّنَةٍ.

وَنَهَجْتُ الطَّرِيقَ: أَبْنَيْتُهُ وَأَوْضَحْتُهُ؛ يُقَالُ: أَعْمَلُ عَلَى مَا نَهَجْتُهُ لَكَ.

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس باب النون والهاء وما يتلثهما ج ٥/ص ٣.

وَنَهَجْتُ الطَّرِيقَ: سَلَكْتُهُ. وَفُلَانٌ يَسْتَنَهِجُ سَبِيلَ فُلَانٍ أَيْ يَسْلُكُ مَسْلَكَه، وَالنَّهَجُ: الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ. وَنَهَجَ الْأَمْرُ وَأَنْهَجَ، لُفْتَانِ، ذَا وَضَحٍ»^(١)

هذا هو التعريف اللغوي لكلمة: نهج؛ والمراد بها في هذا البحث الطريق التي سار عليها أئمة الدعوة النجدية، والتي تدل على توسطهم واعتدالهم وبعدهم عن مسالك الغلو، وذلك من خلال ما قرروه في كتبهم ورسائلهم.

×ثانياً: الاعتدال: الاعتدال مصدر الفعل اعتدل الذي أصله عَدَلَ؛ يقول ابن فارس: «(عَدَلَ) الْعَيْنُ وَالِدَالُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، لَكِنَّهُمَا مُتَقَابِلَانِ كَالْمُتَضَادَّيْنِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى اسْتَوَاءٍ، وَالْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى اعْوِجَاجٍ... وَالْعَدْلُ: نَقِيضُ الْجَوْرِ، تَقُولُ: عَدَلَ فِي رَعِيَّتِهِ. وَيَوْمَ مَعْتَدِلٍ، إِذَا تَسَاوَى خَالَا حَرَّهُ وَبَرَّهُ، وَكَذَلِكَ فِي الشَّيْءِ الْمَأْكُولِ. وَيُقَالُ: عَدَلْتُهُ حَتَّى اعْتَدَلَ، أَيْ أَقَمْتُهُ حَتَّى اسْتَقَامَ وَاسْتَوَى. قَالَ:

صَبَحْتُ بِهَا الْقَوْمَ حَتَّى امْتَسَكَتَ تَبِ الْأَرْضُ تَعْدِلُهَا أَنْ تَمِيلَا»^(٢)

والاعتدال الحسن والاستقامة؛ قال في اللسان: «وَرَوَى الْأَزْهَرِيُّ عَنِ اللَّيْثِ: الْمُعْتَدِلَةُ مِنَ النُّوقِ الْحَسَنَةُ الْمُتَقَفَّةُ الْأَعْضَاءُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ... رَوَى شِمْرٌ عَنْ أَبِي عَدْنَانَ الْكِنَانِيِّ أَنَّهُ:

وَعَدَلَ الْفَحْلُ، وَإِنْ لَمْ يُعْدَلِ ××× وَعَدَلْتُ ذَاتَ السَّنَامِ الْأَمِيلَ

قَالَ: اعْتَدَالَ ذَاتَ السَّنَامِ الْأَمِيلِ اسْتِقَامَةً سَنَامَهَا مِنَ السَّمَنِ بَعْدَ مَا كَانَ مَائِلًا»^(٣)

والمقصود من الاعتدال في هذا البحث يدور حول معاني الاستقامة والحسن؛ ويبين أن نهج أئمة الدعوة مستقيم على الصراط، حسن المأخذ حسن الاتباع؛ فإنهم رحمهم الله يسرون على هدي الكتاب والسنة متمسكين بحبل الله المتين وصراطه المستقيم وكفى بذلك حسناً.

×ثالثاً: فَكَرَ: يقول ابن فارس «(فَكَرَ) الْفَاءُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ تَرَدُّدُ الْقَلْبِ فِي الشَّيْءِ. يُقَالُ تَفَكَّرَ إِذَا رَدَّدَ قَلْبُهُ مُعْتَبِرًا. وَرَجُلٌ فِكِيرٌ: كَثِيرُ الْفِكْرِ»^(٤)

وفي اللسان: «الْفَكْرُ وَالْفِكْرُ: إِعْمَالُ الْخَاطِرِ فِي الشَّيْءِ؛ قَالَ سِيبَوَيْهٍ: وَلَا يَجْمَعُ الْفَكْرُ وَلَا الْعِلْمُ وَلَا النَّظَرُ، قَالَ: وَقَدْ حَكَى ابْنُ دُرَيْدٍ فِي جَمْعِهِ أَفْكَارًا. وَالْفِكْرَةُ: كَالْفِكْرِ وَقَدْ فَكَرَ فِي الشَّيْءِ وَأَفَكَرَ

(١) لسان العرب لابن منظور مادة نهج: ج ٢/ص ٢٨٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة ج ٤/ص ٢٤٦.

(٣) لسان العرب لابن منظور ج ١١/ص ٤٣٦.

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ج ٤/ص ٤٤٦.

فِيهِ وَتَفَكَّرَ بِمَعْنَى. وَرَجُلٌ فَكِيرٌ، مِثَالُ فَسِيقٍ، وَفَيْكَرَ: كَثِيرُ الْفِكْرِ؛ الْأَخِيرَةُ عَنْ كُرَاعٍ. اللَّيْثُ: التَّفَكُّرُ أَسْمُ التَّفَكِيرِ. وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ: الْفِكْرُ الْفِكْرَةُ، وَالْفِكْرَى عَلَى فَعْلَى اسْمٌ، وَهِيَ قَلِيلَةٌ. الْجَوْهَرِيُّ: التَّفَكُّرُ التَّأَمُّلُ، وَالْإِسْمُ الْفِكْرُ وَالْفِكْرَةُ، وَالْمَصْدَرُ الْفِكْرُ، بِالْفَتْحِ. قَالَ يَعْقُوبُ: يُقَالُ لَيْسَ لِي فِي هَذَا الْأَمْرِ فِكْرٌ أَيْ لَيْسَ لِي فِيهِ حَاجَةٌ، قَالَ: وَالْفَتْحُ فِيهِ أَفْصَحُ مِنَ الْكَسْرِ»^(١)

إذاً التفكير يدور حول تقليب المعنى في داخل الإنسان للوصول لنتيجة في مسألة معينة؛ وذلك باستخدام أداة التفكير العظمى التي وهبها الله للإنسان وهي العقل. ومصدر هذا الفعل الذي هو فكر: الفكر، أو الفكر، وغالباً يطلق المصدر في الأبحاث العلمية المعاصرة على: النتيجة التي أدى إليها فعل التفكير؛ فيقال فكر فلان أي: نتاج دراساته المتعلقة بمسألة ما، أو يقال فكر إسلامي أي: نتاج التفكير الإسلامي وهكذا ..

وإطلاق الفكر على الإنتاج هو تعبير بالسبب عن المسبب؛ فسبب هذا الإنتاج هو التفكير الذي فعله الأصلي: فكر، وهذا من باب ما يعرف في علم البلاغة بالمجاز المرسل.^(٢)

فالمقصود من فكر أئمة الدعوة: نتاج تفكيرهم في الدين الإسلامي في مسائله ودلائله؛ الدين الذي دعوا إليه، وناضلوا من أجله وجاهدوا في سبيل تمكينه في الأرض، ونهج تعاطيهم مع هذه القضايا؛ النهج الذي اتسم بالاعتدال والوسطية المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بفهم السلف الصالح رحمهم الله أجمعين.

(١) لسان العرب لابن منظور، ج٥/ص٦٥.

(٢) المجاز المرسل: ما يُعبّرُ به عن غيره لعلاقة غير المشابهة كالسببية والحالية والمكانية وغيرها. فإذا كانت العلاقة المشابهة فهي استعارة؛ ومن أمثلة المجاز المرسل في علاقة السببية قول المتنبي:
له أياد علي سابعة ×× أعد منها ولا أعددها؛ فسمى النعم الممنوحة له أيادٍ حيث أن الأيدي سبب النعم.. وكذلك قول الشاعر:
إذا نزل السماء بأرض قوم ×× رعيانها وإن كانوا غضاباً؛ فسمى العشب النابت في الأرض سماءً لأن السماء سبب في انباته.
انظر في المجاز المرسل شرح الكوكب المنير لابن النجار: ج١/ص٥٠)

المبحث الثالث

معالم الاعتدال عند أئمة الدعوة

١) الأخذ بالكتاب والسنة:

الأخذ بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة من أبرز معالم الاعتدال الفكري عند أئمة الإسلام في كل عصر ومصر؛ ذلك أن الكتاب والسنة فيهما بيان المنهج الوسطي الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين إذ يقول: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً» (البقرة: ١٤٣) وفيهما العدل - الذي هو أساس النهج المعتدل - حتى مع الذين بيننا وبينهم عداوة أو بغضاء «ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى» (المائدة: ٨) كما كان النهج النبوي يتبع أسير الأمرين مالم يكن إثمًا^(١)؛ بل الشريعة الإسلامية كلها مبنية على اليسر والسماحة ولذلك كان نهج هؤلاء الأئمة نقياً بنقاء المعين الذين استقوا منه وسنرى منهجهم في التلقي من خلال الأئمة الذين اخترناهم نماذج لأئمة الدعوة للاعتبارات التي ذكرناها سابقاً.

فأما الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ؛ فكتابه فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد مليء بنصوص الكتاب والسنة، التي يسوقها لبيان مراد الشيخ محمد بن عبد الوهاب من إيراده للنص الشرعي في كتاب التوحيد، وكثيراً ما يعود لسياق الآيات؛ ليبين معناها وسبب إيراد الشيخ الإمام لها. ومن أمثلة ذلك في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: أورد الشيخ الإمام قوله تعالى: «أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا» (الإسراء: ٥٧) قال الشيخ عبد الرحمن: «يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها، وهي قوله تعالى: «قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً» (الإسراء: ٥٦) ... ثم يورد أقول المفسرين في ذلك^(٢). وهذا منهجه الغالب في الكتاب إيضاح النص الشرعي بالنص الشرعي سواء الكتاب أو السنة.

وفي وجوب اتباع الكتاب والسنة وتقديهما على رأي كل أحد؛ يقول الإمام عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: «وعلى هذا فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء كائناً من كان،

(١) أخرجه البخاري وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «ما خير النبي صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يَأْثِمْ فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرمة الله فينتقم لله» كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمة الله برقم ٦٤٠٤.

(٢) فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد بتحقيق الضريان (٢٠٥/١)

ونصوص الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة، فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد. وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه ... - إلى أن قال بعد نقله لكلام الإمام أحمد رحمه الله: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان» - قال: «في كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفهم لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما ينشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله، والإقبال على كتب من تأخروا والاستغناء بها عن الوحيين، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]^(١)

وهذا واضح جلي في عامة كتب الإمام عبدالرحمن آل الشيخ، حتى كتبه في الرد و نقض حجج المخالفين في التوحيد؛ مثل كتابه المليء بالنصوص الشرعية: «المورد العذب الزلال في نقض شبه أهل الضلال»^(٢) وهي سمة بارزة من سمات أئمة الدعوة عموماً؛ متأثرين في ذلك بشيخهم إمام الدعوة الأول؛ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

وأما الشيخ أبا بطين؛ فكان على ذات النهج مستدلاً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكانت هذه طريقته في عرض قضايا التوحيد ومسائله كما ذكر ذلك مؤلف كتاب: «الشيخ العلامة عبد الله ابن عبدالرحمن أبا بطين مفتي الديار النجدية حياته وآثاره وجهوده في نشر عقيدة السلف»^(٣). كما وقفت على كتابه: «الانتصار لحزب الله الموحدين»؛ فوجدته مليئاً بنصوص الكتاب والسنة^(٤)، وكذلك كتابه الرد على البردة. ومن النصوص التي يمكن أن يستشهد بها في هذا المقام؛ تحذير العلامة بأباطين من مكائد الشيطان لبعض المنتسبين للعلم من الاعراض عن الاستدلال بالكتاب والسنة، والاكتفاء بالتقليد لا سيما في أصول الاعتقاد يقول رحمه الله: «ومن أعظم مكائد الشيطان لكثير من الناس، خصوصاً من ينتسب إلى العلم: أن حال بينهم وبين تدبر القرآن

(١) فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد ٣٧٤، ٣٧٦ - الطبعة التي صححها العلامة ابن باز ط: الثانية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م المكتبة التجارية - مكة المكرمة.

(٢) مطبوع ضمن مجمعة كتب لأئمة الدعوة اعتنى بها الشيخ عبد الله بن سعدي وقدم لها الشيخ ابن باز ط: الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١م مكتبة الطرفيين - الطائف.

(٣) انظر ص ٢١٩ وما بعدها.

(٤) مطبوع ضمن مجمعة كتب لأئمة الدعوة اعتنى بها الشيخ عبد الله بن سعدي وقدم لها الشيخ ابن باز ط: الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١م مكتبة الطرفيين - الطائف.

وتفهمه، خصوصاً فيما تضمنه من أدلة التوحيد، وسائر أصول الدين التي لا يجوز التقليد فيها عند عامة العلماء؛ فإذا علم أنه لا يجوز التقليد فيها، تعين معرفة أدلتها من الكتاب والسنة. والله سبحانه قد بين ذلك غاية البيان، والنبي ﷺ بين للناس ما نزل إليهم من ربه؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل آية: ٤٤]، ثم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وأئمة الهدى بعدهم، تكلموا في ذلك بما يكفي ويشفي قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران آية: ٧]، قال ابن كثير رحمه الله: يخبر سبحانه أن في القرآن آيات محكمات؛ أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخرى فيها اشتباه في الدلالة، على كثير من الناس، أو بعضهم، فمن رد ما اشبهه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، انتهى. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «المحكمات، قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام آية: ١٥١]، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء آية: ٢٣]، وآيات بعدها»، يعني: أن هذه الآيات ونحوها من المحكم، وقال ابن عباس أيضاً: «التفسير على أربعة أنحاء: تفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير لا يعلمه إلا الله» انتهى كلامه ﷺ. (١)

وأما علامة القصيم؛ الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، فقد كانت عنايته بالكتاب والله، والسنة واضحة بيّنة، حيث فسر القرآن الكريم، ووضع لتفسيره قواعد حسناً تبين منهج التفسير الصحيح القائم على فهم النصوص الشرعية وكلام العرب، مع الإحاطة بكلام المفسرين السابقين الذين فسروا كتاب الله.

يقول في مقدمة تفسيره: «وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطّول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقتصر يقتصر على حل بعض ألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه؛ فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم. فالنظر لسياق الآيات، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزول القرآن؛ من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها... - إلى أن قال - ولما منّ الباري عليّ

(١) الرد على البردة ص ٤٠٤ - ٤٠٥ ملحق بكتاب العلامة أبابطين السابق ذكره. والأثر عن ابن عباس أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/١)

وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا، أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما من به الله علينا؛ ليكون تذكرة للمحصّلين، وآلة للمستبصرين، ومعوّنة للسالكين، ولأقيدة خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم فجزاهم الله عن المسلمين خيراً^(١).

وكذلك عنايته ﷺ بالسنة النبوية شرحاً واستدلالاً؛ فقد كان يشرح لطلابه كتاب: «بلوغ المرام»، كما ألف في شرح السنة كتابه المختصر اللطيف الذي يدل على عميق فهمه لسنة النبي ﷺ: «بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار».

يقول ﷺ في مقدمة الكتاب: «وقد بدا لي أن أذكر جملة صالحة من أحاديثه الجوامع في المواضيع الكلية، والجوامع في جنس أو نوع أو باب من أبواب العلم، مع التكلم على مقاصدها وما تدل عليه، على وجه يحصل به الإيضاح والبيان مع الاختصار؛ إذ المقام لا يقتضي البسط»^(٢).

وهكذا نرى - من خلال هؤلاء الأئمة الأفاضل - أن عناية أئمة الدعوة ﷺ بمصدري التشريع الكتاب والسنة؛ عناية كبيرة وهما المصدران اللذان رسخا للوسطية والاعتدال؛ فاعتصامهم بهما دليل على اتباع نهج الاعتدال وسلوك صراط الله المستقيم، بعيداً عن الغلو والشطط، ونأياً عن التهاون والغلط، فرحمهم الله رحمة واسعة.

٢) الاحتياط في تكفير المعين

مسألة تكفير المعين مسألة شائكة في الفكر الإسلامي، ودقيقة غاية الدقة، وهي في فكر أئمة الدعوة أكثر تعقيداً؛ لاعتبارات عدة منها: أن أئمة الدعوة وعلماءها كانوا يشاركون ولاية أمورهم في الدولة السعودية في القتال؛ لتوطيد أركان الدولة والقضاء على الفتن، فظن من ظن أنهم إنما يقاتلون لتكفير الناس لخروجهم عن مقتضى التوحيد أو الشرك بالله، وهذا صحيح في الجملة؛ ولكن ليس في كل قتال يعتقد هؤلاء الأئمة كفر المقاتلين أو شركهم؛ بل ربما كان هذا لمصلحة المسلمين، وإقامة شرع الله رب العالمين، وجمع الناس تحت إمام واحد تتحقق به مصلحة الدنيا والدين. والتحقق من ذلك إنما يكون بالوقوف على كل حادثة بعينها، وبيان موقف أئمة الدعوة من هذا القتال. وليس هذا مجال بحثنا إنما البحث يعنى بالناحية الفكرية والاعتقادية لهؤلاء الأئمة، ولكن لأهميته وجبت الإشارة إليه والتنبيه عليه.

ومما يجعل هذه المسألة أكثر تعقيداً في فهم الناس لمنهج أئمة الدعوة في التكفير عموماً، وتكفير

(١) مقدمة تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٩-١٠ ط: السادسة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م - مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٢) انظر: ص ١١ ط: الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠١٢ م مكتبة ابن رشد - الرياض.

المعين على وجه الخصوص؛ ما يثيره أعداء الدعوة والهانقون على المنهج السلفي النقي من شبهات واتهامات باطلة، مع ما في كلام بعض أئمة الدعوة - كالشيخ أبا بطين رحمته الله كما سيأتي معنا- من ألفاظ توحى بكفر مرتكب الشرك الأكبر دون اعتبار لمانع الجهل، وأن هذا هو رأي ابن تيمية رحمته الله! إن كل هذه الأمور جعلت من مسألة تكفير المعين عند أئمة الدعوة مسألة شائكة ومعقدة، ولكن من خلال هؤلاء الأئمة الذين انتخبناهم؛ سنبين بحول الله نقاء فكرهم، وبعدهم عن تكفير الناس بالباطل، وسلوكهم النهج المعتدل في هذه المسألة الشائكة.

وقبل أن ننقل عن الأئمة أقوالهم في هذه المسألة؛ تجدر الإشارة إلى أن علماء الدعوة منذ الإمام محمد بن عبد الوهاب، ومن بعده ممن سار على ذات النهج؛ يتبعون في مسائل الاعتقاد- ومنها مسألتنا هذه - الشيخين ابن تيمية وابن القيم، فتجدهم في كل مبحث من هذه المباحث ينقلون عنهما، ويبينون رأيهما غاية البيان مقتضين أثرهما في الفهم والاستدلال، حتى أن الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ألف رسالة صغيرة في «تحقيق مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألتها العذر بالجهل و تكفير المعين» - وسيأتي الحديث عنها - وهذا يدل على شديد عنايتهم بمنهج هذين الشيخين .

ومما لا شك فيه؛ أن منهج الشيخين ابن تيمية وابن القيم في مسألة التكفير؛ أنهما لا يطلقان الكفر على المعين إلا في حال توفر الشروط وانتفاء الموانع؛ وعليه فمذهب أئمة الدعوة هو مذهب الشيخين المتسم بالوسطية والاعتدال؛ فهم وسط بين من يطلق الكفر على المعين دون تحقق من توفر الشروط فيه وانتفاء الموانع عنه، ومن لا يكفر مطلقاً من تلبس بمكفر وقد توفرت فيه الشروط وانتفت عنه الموانع. وهذا هو النهج الذي سار عليه أئمة الدعوة رحمهم الله جميعاً.^(١)

فأما الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمته الله فكان متبعاً لمنهج الشيخين المعتدل، ورد على من زعم أن في منهج ابن تيمية ما يوحى بنفي الكفر مطلقاً ممن ارتكبه أو تلبس به - كما في كتابه المذكور آنفاً - : «تحقيق مذهب ابن تيمية في مسألتها العذر بالجهل وتكفير المعين» يقول رحمته الله : «والمقصود بيان ما كان عليه شيخ الإسلام وإخوانه من أهل السنة والجماعة من إنكار الشرك الأكبر الواقع في زمانهم، وذكرهم الأدلة من الكتاب والسنة على كفر من فعل هذا الشرك أو اعتقده».^(٢)

وأما إطلاق الكفر على المعين فكان رحمته الله يحتاط لذلك حتى تُقام على المعين الحجة، وتُبين له المحجة. ومثله في ذلك مثل أئمة الدعوة الآخرين؛ الذين كانوا يرون أن الناس في زمانهم قد بُين لهم الدليل، وقامت عليهم الحجة فلا عذر لهم في ترك الشرك، والبراءة

(١) انظر في ذلك نوافض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف للوهبي وسيأتي بيان ذلك.

(٢) تحقيق مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألتها العذر بالجهل وتكفير المعين، علق عليه واعتنى به بدر بن طامي العتيبي ص ٢١.

منه ومن أهله، واتباع توحيد رب العالمين الذي لا يسع المرء غيره إلا خرج من الملة والدين. وكذلك يقول العلامة مفتي الديار النجدية الشيخ عبد الله أبا بطين- في بيان أن أكثر الناس على طريق نقيض في مسألة تكفير المعين -: «وقد استزل الشيطان أكثر الناس في هذه المسألة؛ فقصر بطائفة فحكموا بإسلام من دلت نصوص الكتاب والسنة والإجماع على كفره، وتعدى بآخرين فكفروا من حكم الكتاب والسنة والإجماع بأنه مسلم، فيا مصيبة الإسلام من هاتين الطائفتين ومحنته من تينك البليتتين!!»^(١).

وقال شارحاً لقول ابن تيمية في تكفير المعين: «فقوله ﷺ لم يمكن تكفيرهم حتى يبين لهم ما جاء به الرسول؛ أي لم يمكن تكفيرهم بأشخاصهم وأعيانهم بأن يقال فلان كافر ونحوه، بل يقال هذا كافر ومن فعله كافر»^(٢). فبين أن في هذه المسألة أمرين؛ أحدهما: عدم التكفير إلا بعد البيان؛ وهذا يعني أن الجاهل لا يُكفر حتى يرتفع عنه وصف الجهل، وثانيهما: أن يفرق بين إطلاق الكفر على الفعل، وإطلاقه على الفاعل، وهذا يدل دلالة واضحة على احتياط العلامة أبا بطين في تكفير المعين. كما يوضح الشيخ عبد الرحمن السعدي ﷺ أن ارتكاب المكفرات لا يعني أن مرتكبها المعين كافر؛ فقد يكون متأولاً. ويمثل على ذلك بالخوارج الذين استحلوا دماء المسلمين، وانكروا ما علم من الدين بالضرورة، ومع ذلك لم يكفرهم الصحابة -رضوان الله عليهم- يقول رحمه الله: «الخوارج الحرورية الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ومن معه من الصحابة والمسلمين، وكفروهم واستحلوا دماءهم الثابت بالكتاب والسنة والإجماع عصمتها واحترامها، فضللوهم واستباحوا قتالهم حيث خرجوا عليهم، ولم يخرجوهم من دائرة الإسلام مع استحلالهم ما هو من ضروريات الدين، ولكن التأويل الذي قام بقلوبهم وظنوا أنه مراد الله ورسوله منع الصحابة من الحكم عليهم بالكفر؛ اتباعاً لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال الله تعالى: (قد فعلت)»^(٣). وهذا عام في كل ما أخطأ فيه المؤمنون من الأمور العملية والأمور الخبرية، بل أبلغ من ذلك أنهم يروون عنهم- أي يروون عن الخوارج- ويأخذون الأحاديث المتعلقة بالدين إذا تبين صدقهم، مع أن مذهبهم- غير تكفير المسلمين- إنكار الشفاعة في أهل الكبائر مع ثبوتها وتواترها، ولكنهم مع عدم تكفيرهم لهم قد حكموا عليهم بالضلال، والمروق من الشريعة ومخالفة المسلمين، واستحلوا قتالهم، بل رأوه من أفضل الأعمال المقربة منه لشدة ضررهم في عقيدتهم ويسفهم»^(٤).

(١) فتاوى الأئمة النجدية ٢٣٦/٢ طبعة دار ابن خزيمة.

(٢) الانتصار لحزب الله الموحدين - ضمن مجموعة عقيدة الموحدين ص ٢٩.

(٣) رواه الإمام مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الإيمان باب: «وإن تبدوا ما في أنفسكم ...» برقم: ٢٠٩.

(٤) إرشاد أولى البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ت: أشرف عبد المقصود ط: الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م مكتبة أضواء السلف - الرياض.

(٣) العذر بالجهل

المقصود بالعذر بالجهل هنا هو: عذر المسلم الذي وقع في مكفر من المكفرات؛ جهلاً منه بأن ما فعله كفر أكبر مخرج من الملة. وهذه المسألة - إعدار الجاهل - مبنية على أصل عظيم في الدين؛ وهو عدم قيام الحجة على الناس إلا بعد بلوغ الرسالة الإلهية إليهم؛ ولذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب تبياناً لكل شيء، وأعظمه توحيد الله والكفر بالطاغوت. ومن جهل المكفر الذي وقع فيه فهو بمنزلة من لم تبلغه الحجة، ولم يعلم بالرسالة فكيف يؤاخذ به؟ والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد اشتهر عن أئمة الدعوة عدم عذرهم بالجهل في الشرك الأكبر، أو هكذا فهم المنحازون لهذا الرأي ممن كتب في عدم معذرة الجاهلين بتوحيد رب العالمين^(١)؛ والأمر ليس كذلك؛ فائمة الدعوة وعلى رأسهم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب؛ كانوا يرون إعدار الجاهل ما دام جاهلاً حتى يرتفع عنه وصف الجهل وتبلغه حجة الله. ولكن الأئمة حين قاموا بالدعوة للتوحيد وترك الشرك، عارضهم في ذلك بعض من يتبنى أن الشرك الأكبر - كالدعاء والاستغاثة بغير الله - لا ينقلان من الملة؛ كأخيه سليمان بن عبد الوهاب، وابن جرجيس. ولذلك جابههم الإمام وتلاميذه من بعده؛ ليثبتوا لهم أن هذه الأمور كفر، وأن صلاة وصيام من يقع فيها لا ينفعانه ما دام قد أشرك مع الله غيره في عبادته؛ ولذلك ألف الإمام كتابه الشهير: «مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد» لبيان مشروعية تكفير المعين ما دام قد ارتفع عنه وصف الجهل، وبُين له الشرع، وانتفت عنه الموانع وتوفرت فيه الشروط حتى لو صلى وصام وزعم أنه مسلم. وهكذا الأئمة من بعده كانوا يكتبون ويردون على أمثال ابن جرجيس؛ ليبينوا لهم إمكانية تكفير المعين؛ وليس عدم العذر بالجهل مطلقاً، وإن أوحى عباراتهم بذلك فالواقع وسياقات الحال والمقال تبين المقصود وتوضح المراد.^(٢)

وكان من أكثر من يستدل بكلامه في هذا الباب عند القائلين بعدم العذر بالجهل؛ الشيخان عبد الرحمن بن حسن والشيخ أبابطين والثاني أشد عبارة وأقوى إشارة - كما ذكرنا سابقاً^(٣) - وسنرى أقوالهم في ذلك بعد أن قدمنا بهذه المقدمة اليسيرة.

فأما الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ؛ فكان شديد الاهتمام بكتب ابن تيمية، يدل على ذلك ما كتبه حول تحقيق مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألتين العذر بالجهل وتكفير المعين، وكان مقصوده في ذلك كما ذكره في الكتاب: «بيان ما كان عليه شيخ الإسلام وإخوانه من أهل

(١) انظر مثلاً في ذلك الكتب التالية: الجواب المفيد في حكم تارك التوحيد لعبد الرحمن بن عبد المجيد، وضوابط تكفير المعين عند شيعي الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب لأبي العلا الراشد، والعذر بالجهل تحت المجهر لمحدث آل فراج.

(٢) انظر في ذلك؛ إشكالية العذر بالجهل في البحث العقدي للدكتور سلطان العميري ص: ٥٢ الطبعة الثانية مركز نماء للبحوث والدراسات.

(٣) انظره في هذا البحث في بيان ضوابط اختيار أئمة الدعوة محل الدراسة.

السنة والجماعة من إنكار الشرك الأكبر الواقع في زمانهم، وذكرهم الأدلة من الكتاب والسنة على كفر من فعل هذا الشرك أو اعتقده»^(١).

إن غرض الشيخ عبد الرحمن بن حسن من تأليف هذا الكتاب؛ يؤكد ما ذكرناه قبلاً من أن أئمة الدعوة يؤكدون على أن الشرك الأكبر عظيم الخطر، محبط للعمل، لا ينفع صاحبه الذي قارفه صلاة ولا صيام ولا غيرهما من الطاعات. وليس غرضه بيان أن الجاهل لا يعذر في الشرك الأكبر. كما نقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية في من جحد شيئاً من الواجبات الظاهرة، أو بعضاً من المحرمات الظاهرة المتواترة بأنه كافر مرتد، ثم قال بعده: «قلت ولم يقل شيخ الإسلام إنهم يعذرون بالجهل؛ بل كفرهم وقال إنهم ارتدوا» والناظر في هذا النص قد يتوهم أن مقصود الشيخ عبد الرحمن؛ عدم عذر الجاهل المعين في الشرك الأكبر، وليس الأمر كذلك؛ بل المقصود كفر من يقول بذلك من غير تعيين وهذا حق؛ لأن شيخ الإسلام ذكر المقالة ولم يذكر قائلها معيناً. وبهذا يتبين أن مراد الشيخ عبد الرحمن بن حسن إثبات وقوع الشرك والتحذير من تلبس المسلمين به، وليس المراد عدم إعدار الجاهل المعين بجهله.

وكذلك العلامة أبابطين مفتي الديار النجدية؛ جل النصوص المنقول عنه إما في إطلاق الكفر على الأفعال دون التعيين، وهذا ليس بمتعلق الجهل؛ بل الجهل متعلقة المعين. أو نصوص تبين إمكانية تكفير المعينين من أهل البلد المعين؛ لعدم خفاء الشرك على أمثالهم. وله نصوص واضحة بينة تبين أنه على منهج الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في عدم تكفير المعين الجاهل، وذلك عند شرحه لقول الشيخ عندما ذكر الشرك: «... ولكن لغلبة الجهل في كثير من المتأخرين، لم يمكن تكفيرهم حتى يبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ» قال الشيخ أبابطين: «فالظاهر أن مراده المعين؛ لجزمه في غير موضع بكفر من فعل الشرك» - أي من غير تعيين - وهذا حق كما ذكرنا أن متعلق الجهل هو المعين، لا الفاعل المطلق من غير تعيين؛ فكيف يوصف المجهول بالجهل ونحن نجعله؟

وقال في زيادة إيضاح مذهب الشيخ في هذه المسألة: «إن مراده أننا إذا سمعنا من إنسان كلام كفر، أو وجدناه في كلام بعض الناس المنظوم أو المنثور؛ أننا لا نبادر إلى تكفير من رأينا منه ذلك، أو سمعناه حتى نبين له الحجة الشرعية»^(٢).

وهذه النصوص تؤكد على أن الجاهل المعين لا يكفر حتى يبين له الحكم الشرعي، ويرتفع عنه وصف الجهل، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، كما بينه المحققون من أهل العلم؛ كابن تيمية وابن القيم، وهو المذهب الوسطي المعتدل الذي كان عليه أئمة الدعوة رحمة الله عليهم أجمعين.

وأما الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - من علماء الدولة السعودية الثالثة - فتحدث عن مسألة العذر بالجهل بغاية الوضوح؛ لأن المسألة باتت أكثر وضوحاً من ذي قبل، وخفت صوت المناوئين للدعوة الذين كانوا يجادلون عن الكفر، وعن عذر من وقع فيه عذراً مطلقاً ولو علم وعرف

(١) تحقيق مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في مسائلتي العذر بالجهل وتكفير المعين، ص: ٢٠.

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم - ١٠/٤٠٥، ٤٠٦ ط. الخامسة ١٤١٣-١٩٩٢.

وتبين ما جاء به الرسول: من أن من أشرك بالله فقد حبط عمله. وهذا - كما أشرنا آنفاً - الذي جعل الأئمة الأولين من أئمة الدعوة يقفون بحزم في بيان وقوع الشرك في أمة محمد ﷺ، وأن من تلبس به فهو مشرك، وليس مقصودهم أبداً أن الجاهل الواقع في الشرك غير معذور.

يقول ﷺ في الفتاوى السعدية: «وأما من كان مؤمناً بالرسول، ومصدقاً له في كل ما قاله، وملتزماً لدينه، ثم وقع منه خطأ في الاعتقاد أو القول والعمل، جهلاً أو تقليداً أو تأويلاً؛ فإن الله يقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وعفي عن أمته الخطأ النسيان وما استكروها عليه؛ في المقالة والاعتقاد وإن كان كضراً.

ويقال: من اعتقدها أو عمل بها، فهو كافر؛ لكن قد يقع ويوجد مانع في بعض الأشخاص يمنع من تكفيره؛ لعدم علمه أنه كفر وشرك؛ فيوجب لنا التوقف في إطلاق الكفر على عينه، وإن كنا لا نشك أن المقالة كفر؛ لوجود ذلك المانع المذكور، وعلى هذا عمل الصحابة والتابعين ... وقد صرح شيخ الاسلام في كثير من كتبه، كرده على البكري والإخنائي وغيرهما حين ذكر وقوع مثل هذه الأمور من بعض المشايخ المشار إليهم، فذكر أنه لا يمكن تكفيرهم؛ لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة، حتى تبين لهم الحجة التي يكفر منكرها، وكلامه معروف مشهور. فاتضح لنا من ذلك أن من وقعت منه مثل هذه الأمور جهلاً وتقليداً، أو تأويلاً من غير عناد، أنه لا يحكم بتكفيره بعينه؛ وإن كانت هذه الأمور الواقعة منه كضراً؛ للمانع المذكور ... «إلى أن قال ﷺ: «فكل من كان مؤمناً بالله ورسوله، مصدقاً لهما ملتزماً طاعتهما، وأنكر بعض ما جاء به الرسول؛ جهلاً، أو عدم علم أن الرسول جاء به فإنه - وإن كان ذلك كضراً، ومن فعله فهو كافر-؛ إلا أن الجهل بما جاء به الرسول يمنع من تكفير ذلك الشخص المعين، من غير فرق بين المسائل الأصولية والفرعية؛ لأن الكفر جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه مع العلم بذلك»^(١).

وهنا يتضح بجلاء موقف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ﷺ في هذه المسألة الشائكة؛ حيث بين بكل وضوح؛ أن الحق هو أن يعذر المرء بجهله في مسائل الدين كلها بما في ذلك مسائل الشرك والكفر الأكبرين.

وموقف الشيخ عبد الرحمن السعدي كما هو موقف الشيخين عبد الرحمن آل الشيخ، وموقف مفتي الديار النجدية العلامة أبابطين؛ هو موقف سائر أئمة الدعوة فيما اطلعت عليه من كتبهم، وهو الموقف الوسطي المعتدل في القضايا الفكرية المطروحة في هذا البحث، والتي يتبين من خلالها نهجهم الفكري المعتدل الذي لم يشذ عن منهج أهل السنة والجماعة؛ الذين يعرفون الحق ويرحمون الخلق، هذا المنهج الذي شاء الله تعالى أن تبقى عليه طائفة منصورة من أمة محمد ﷺ لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك.

(١) الفتاوى السعدية، باب حكم المرتد ص: ٥٧٩ وما بعدها ط: الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م مكتبة المعارف - الرياض.

الخاتمة

الحمد لله الذي يسر وأعان على ختم هذا البحث المختصر حول نهج الاعتدال في فكر أئمة الدعوة ... وبعد

ففي الختام هذه هي نتائج البحث :

- أن المنهج الفكري لدى أئمة الدعوة نهج معتدل لا غلوفيه من حيث نقاء المصدر الذي اعتمدوا عليه وهو الوحي المعصوم، كما اتبعوا في فهم نصوص الوحيين نهج أهل السنة والجماعة.
- أن هناك ظن خاطئ في فهم فكر أئمة الدعوة في مسائل تكفير المعين، والعتز بالجهل في الشرك الأكبر؛ بينما هم لم يخرجوا في ذلك عن منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب.
- أن سبب هذا الفهم الخاطئ؛ عدم فهم سياقات كلامهم في هذا الباب سواء السياقات الحالية التي كانت قائمة آنذاك، أو السياقات المقالية التي تبين مرادهم في مواطن شتى، حيث الواجب جمع كلامهم المتفرق في المسألة الواضحة ليتبين المراد.

وأما التوصيات فما يلي:

- أن يعتمد الباحثون في بيان فكر أئمة الدعوة على كتبهم المحررة والمكتوبة بأيديهم دون كتب التاريخ التي ربما اختلط فيها كلام المؤرخين بكلام بعض الحاقدين على الدعوة وأئمتها.
- أن يفصل الباحثون في القضايا الفكرية لأئمة الدعوة المسائل المحررة المكتوبة منهم، عن أعمالهم التي كانوا يقومون بها اجتهداً مع الأئمة لإقامة الدين وجمع الناس على كلمة سواء؛ حيث تحتاج هذه الأعمال لدراسة دقيقة تبين أسبابها وأبعادها وهي للتاريخ أقرب منها للقضايا الفكرية والعقدية.

هذا والله تعالى أعلم وأحكم وأصلي وأسلم على النبي الأكرم وعلى آله وصحبه وسلم.

مراجع البحث

٠ القرآن العظيم

١. إرشاد أولى البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ت: أشرف عبد المقصود ط: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م مكتبة أضواء السلف - الرياض
٢. إشكالية العذر بالجهل في البحث العقدي للدكتور سلطان العميري ص: ٥٣ الطبعة الثانية مركز نماء للبحوث والدراسات.
٣. الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية بين الآثار الإيجابية والسلبية لسهيلة أحمد وفتحية بن فطيمة - رسالة ماجستير من المملكة المغربية منشور على الشبكة العنكبوتية.
٤. الانتصار لحزب الله الموحدين للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين، مطبوع مع مجموعة كتب بعنوان: عقيدة الموحدين جمعها الشيخ عبد الله بن سعدي وقدم لها الشيخ ابن باز ط: الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م مكتبة الطرفين - الطائف.
٥. بهجة قلوب الأبرار وقررة عيون الأخبار في شرح جوامع الأخبار للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ط: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠١٢م مكتبة ابن رشد - الرياض.
٦. تاريخ الدولة الصفوية في إيران للدكتور محمد سهيل طقوش طبعة دار النفائس ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م ط الأولى بيروت - لبنان.
٧. تاريخ العربية السعودية للمؤرخ الروسي: ألكسي ميخالوفيتش فاسيلييف، ترجمة: خيرى الضامن وجمال الماشطة - دار التقدم - موسكو ١٩٨٦م.
٨. تاريخ المملكة العربية السعودية: الدكتور عبد الله الصالح العثيمين طبع عدة طبعات منها الطبعة الثالثة عشر من مكتبة العبيكان لعام ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م - الرياض.
٩. تحقيق مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في مسائلتي العذر بالجهل وتكفير المعين، للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، علق عليه واعتنى به بدر بن طامي العتيبي منشور على الشبكة العنكبوتية.
١٠. تقارير أئمة الدعوة في مخالفة مذهب الخوارج وابطاله للدكتور محمد هشام طاهري ط: الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م غراس للنشر والتوزيع - الكويت.
١١. توضيح الشافعية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن القيم شرحها الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي اعتمد بها أشرف عبد المقصود ط: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م مكتبة أضواء السلف - الرياض.
١٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ط: السادسة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م - مؤسسة الرسالة - بيروت.
١٣. الجواب المفيد في حكم تارك التوحيد لعبد الرحمن بن عبد المجيد المصري مطبوع مع مجموعة كتب بعنوان: عقيدة الموحدين جمعها الشيخ عبد الله بن سعدي وقدم لها الشيخ ابن باز ط: الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م مكتبة الطرفين - الطائف.
١٤. حاضر العالم الإسلامي للمؤرخ الأمريكي لوثرروب ستودارد ترجمة: عجاج نوهيضي. طباعة دار الفكر.
١٥. الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم - ١٠/٤٠٥، ٤٠٦-٤٠٧ ط. الخامسة ١٤١٣-١٩٩٢.
١٦. دور الامتيازات الأجنبية في سقوط الدولة العثمانية رسالة دكتوراه للباحث ياسر قارئ - مكتبة الملك عبد الله بجامعة أم القرى - قسم الرسائل العلمية.
١٧. الرد على البردة للشيخ عبد الله أبا بطين مطبوع مع كتاب الشيخ العلامة عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين مفتي الديار النجدية حياته وآثاره وجهوده في نشر عقيدة السلف.
١٨. روضة الأفكار والأفهام لمرئاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام لابن غنام ط: الثالثة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م تحقيق ناصر الدين الأسد وقابله على الأصل عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ١ مطبعة المدني القاهرة - المؤسسة السعودية مصر.

١٩. شرح الكوكب المنير لمحمد بن أحمد الحنبلي المعروف بابن التجار تحقيق د. محمد الزحيلي و د. نزيه حماد من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية - السعودية ١٤١٣-١٩٩٢ مكتبة العبيكان - الرياض .
٢٠. شرح المنظومة الثمانية لابن تيمية شرحها العلامة عبد الرحمن السعدي والمسمى الدرة البهية شرح القصيدة الثمانية في حل المشكلة القدريّة -اعتنى به أشرف عبد المقصود ط: الأولى ١٤١٩-١٩٩٨ مكتبة أضواء السلف - الرياض.
٢١. الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة لعبد الرزاق البدر الكتاب في الأصل رسالة علمية، ط: الثانية ١٤١٤ هـ -١٩٩٣ م مكتبة ابن رشد - الرياض.
٢٢. الشيخ عبد الله أبابطين مفتي الديار النجدية حياته و آثاره وجهوده في نشر عقيدة السلف مع تحقيق رسائلته الرد على البردة: تأليف وتحقيق د. علي العجلان - ط: الأولى: دار الصميعي للنشر والتوزيع ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م الرياض .
٢٣. ضوابط تكفير العين عند شيخي الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب لأبي العلا الراشد ط: الأولى ١٤٢٥-٢٠٠٤ مكتبة الرشد الرياض.
٢٤. طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول - وهي مختارات من كتب ابن تيمية وابن القيم للشيخ عبد الرحمن السعدي ط: بدون - دار البصيرة، الإسكندرية -مصر.
٢٥. العذر بالجهل تحت المجهر لمحدث آل فراج ط: الثانية ١٤١٦-١٩٩٥ مكتبة دار الحمضي - الرياض.
٢٦. عقيدة الموحدين جمعها الشيخ عبد الله بن سعدي وقدم لها الشيخ ابن باز ط: الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م مكتبة الطرفين - الطائف
٢٧. علماء نجد في ثمانية قرون للشيخ عبد الله البسام طبعته دار العاصمة بالرياض عام ١٤١٩ هـ.
٢٨. فتاوى الأئمة النجدية للشيخ عبد الله أبابطين طبعة دار ابن خزيمة
٢٩. الفتاوى السعدية، ط: الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م مكتبة المعارف - الرياض
٣٠. فتح الله الحميد المجيد في شرح كتاب التوحيد للعلامة حامد بن محسن. ط: الأولى ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م دار المؤيد للنشر والتوزيع - الرياض.
٣١. فتح المجيد بتحقيق د. وليد آل فريان ج١/ص ٢٤ ط: الأولى ١٤١٥ هـ دار الصميعي للنشر والتوزيع - الرياض)
٣٢. فتح المجيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ مراجعة وتصحيح وتعليق الشيخ عبد العزيز بن باز ط: الثانية ١٤١٣ هـ -١٩٩٢ م المكتبة التجارية مكة المكرمة
٣٣. الفواكه العديدة في المسائل المفيدة لأحمد بن محمد المنقور ط: الخامسة -١٤٠٧- ١٩٨٧ شركة الطباعة العربية - السعودية.
٣٤. القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن لعبد الرحمن بن ناصر السعدي - اعتنى به خالد السبت ط: الأولى -دار ابن الجوزي - الرياض.
٣٥. القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقااسيم البديعة النافعة للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي تعليق العلامة محمد بن صالح العثيمين ط: الأولى - مكتبة السنة.
٣٦. لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور - تصحيح جماعة من علماء الأزهر ط: الأولى -دار النوادر - مصر.
٣٧. المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية -معجم اليمامة- ج١/ص ٢١٧ وما بعدها، ط: الثانية مطابع الفرزدق - الرياض - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
٣٨. معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكريا بن الحسين ط: الأولى - دار الفكر - دمشق.
٣٩. موجز لتاريخ الوهابي تأليف: هارفر د جونز بريدجز. ترجمة و دراسة و تعليق د. عويضة الجهني ، داره الملك عبد العزيز ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م ص ١٠٩
٤٠. المورد العذب الزلال في نقض شبه أهل الضلال للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، مطبوع مع مجموعة كتب بعنوان: عقيدة الموحدين جمعها الشيخ عبد الله بن سعدي وقدم لها الشيخ ابن باز ط: الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م مكتبة الطرفين - الطائف.
٤١. نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف للدكتور محمد الوهيبي ط: الأولى ١٤١٦ - ١٩٩٦ دار المسلم - الرياض.
٤٢. الوهابية بين الشرك وتصدع القبيلة تأليف: خالد الدخيل، ط الأولى ٢٠١٣ الشركة العربية للأبحاث والنشر، بيروت. لبنان.